الحكمة في الكتاب المقدّس

(2) آذانٌ مُصغِية وأيادٍ تعمل

المطران أنطوان أودو

حاولنا في الفصل السابق ان نلج إلى قلب الحكمة، ووجدنا الإصغاء واقفاً كالحارس امام ابوابها وهو يردد على اذاننا، من يبحث عن الحكمة عليه ان يبدأ اولاً بالاصغاء ! أجل لقد تتبعنا خبرة سليمان عندما جلس على عرش ابيه داود، وصلّى إلى ربه سائلاً ان يهبه قلبًا مُصغيًا قبل كل مالٍ وسلطان، كما اننا توقفنا عند استشهادات كثيرة من سفر الامثال قالت لنا بأشكال مختلفة وبمواطن من السفر متنوعة إن الإصغاء هو حقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقًا بالحكمة، فلا حكمة من دون ان يكون القلب مُصغيًا الى ربه والى حكمة الآباء التي تصلنا عبر سلسلة طويلة من الاختبارات الموثوقة.

اما في هذا الفصل الثاني، فإننا نحاول، ان نقوم بخطوة جديدة في مقاربتنا موضوع الحكمة والإصغاء اليها، أهي إصغاء مجرد يخرجنا خارج الزمان والمكان، ام هي أمر اوسع من ذلك ويدعونا إلى الالتزام الواقعي في معترك الحياة اليومية ؟ هذا ما سنحاول ان نجيب عنه في الصفحات الآتية.

فالآذان المُصغية، كما اشرنا إليها في عنوان هذا الفصل، تتحول إلى أيادٍ تعمل فالآذان لا تكتفي بالإصغاء، فعلى هذا الإصغاء أن يبلغَ قلب الانسان :

" لا تفارقك الرحمة والحق، بل اشدُدهما في عُنُقِكَ، واكتُبهما على لوح قلبك " (مثل 3/3)

" فإن الحكمة تدخل قلبك، ونفسك تلتذ بالعِلم " (مثل 10/2)

كيف لا نقيم صلة في هذا السياق، مع لوحَي الوصايا التي اسلمهما الله الى موسى لما كان على الجبل، ومع ما قاله النبي ارميا في شأن القلب، وهو

الموطن الحقيقي الذي فيه يكتب الله شريعته : " ولما انتهى الله من مخاطبة موسى على جبل سيناء، سلّمه لوحَي الشهادة، لوحين من حجر، مكتوبين بأصبع الله ". (خر 18/31) (راجع أيضًا خر 34 وتث 10/9 و2/10).

" ولكن هذا العهد الذي اقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، هو اني اجعل شريعتي في بواطنهم، وأكتبها على قلوبهم، واكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا " (ار 33/31).

وفي مجال استشهاداتنا عن كتب الشريعة الخمسة او من اسفار الانبياء، نستطيع ان نستنتج ان للتيار الحكمي تأثيراته في التقاليد الكتابية الاخرى، كما شاهدنا آنفًا. وإن اصغينا إلى العهد الجديد سمعنا ايضًا اصداء هذا التيار في اقوال يسوع : " من كان له اذنان تسمعان فليسمع ! " (مر 23/4).

وعلى حيوية الحكمة هذه ألاّ تنحصر في القلب فقط، بل عليها ان تصل إلى يد الانسان، واليد هي العضو في الجسد المرتبط بالعمل بشكل مباشر. فالإصغاء يقود الى الالتزام، بل كل اصغاء يفترض الالتزام بأعمال. وان حاولنا القيام بدراسة حول المفردات الكتابية، وجدنا ان اللغة العبرية لا تحتوي على كلمة تعبّر عن الطاعة سوى فعل " اصغى "، فمع الاصغاء يستطيع الانسان ان يتقبّل الشريعة المعطاة إلى موسى في سفر تثنية الاشتراع : " اسمع يا اسرائيل، الفرائض والاحكام التي انطق بها على مسامعكم اليوم، وتعلّموها واحرصوا ان تعملوا بها " (تث 1/5) (راجع ايضًا تث 4/6).

كذلك إن يسوع يتصرف مثل معلّم حكيم عندما يشير الى ان كلامه مُعد للتطبيق : " لماذا تدعونني يا رب يا رب ! ولا تعملون بما اقول ؟ كل من يأتي إليّ ويسمع كلامي فيعمل به، سأُبين لكم من يشبه : يشبه رجلاً بنى بيتًا... " (لو 46/6-49).

ولذلك، علينا ان ننتبه إلى امر مهم جدًا في امر الحكمة كما وردت في الكتاب المقدس. قد يظن البعض ان في استطاعتنا ان نصنف الحكمة الكتابية ضمن

التيارات الغنوصيـــة العديـــدة، من حيث انها تصبّ اهتمامهـــا على الفكر والذكاء والفطنة، فقد تكون بالتالـــي من مجال المعرفة الباطنيـــة التي تنزع الى الانفصال عن معطيات الواقع الحسي. ولكن إن نظرنا عن قرب في حقيقة الحكمـــة، وجدنا انها لا تنحصـــر أولاً في حلقة ســـرية محصورة في افراد معدوديـــن، بل على العكس من ذلك فهي تتوجه بالكلام إلى اكبر عدد من النـــاس. لا تُتَمتم الحكمـــة بصوت خافت في اذن من يُعتبـــرون من علّيّة القـــوم، ولكنها ترفع صوتهـــا في الساحات وعلى مفترق الطرق وتدعو جميعَ ابنائها اليها :

" هل الحكمـة لا تنادي، والفطنة لا تطلق صوتها ؟ انها واقفة في رؤوس المشارف على الطريق، وفي مفترق الدروب. بجانب الابواب عند ثغر المدينة، في مدخل المنافذ تهتف : إياكم ايها الناس أُنادي، وإلى بني البشر اوجّه صوتي " (مثل 8/1-4)

نعود ونشدد على كون الحكمـــة تتأصل في الحيـــاة الواقعيـــة، فمن حيث انها تحتوي على فكر شـــمولي يهم الانســـان في كل زمان وفي كل مكـــان، قد يظن بعضهم انها تحلّق في عالم بعيد عن الحياة اليومية. وفي الحقيقة، تبدو الحكمة في الكتاب المقدس في منتهى الواقعيـــة، فإنها تُعير انتباهًا لحاجات الانســـان العادية، حتى إن بعضهم رأى في ذلك حقيقة تُبعد انسانَ اليوم عن مطالعتها بســـبب بحثه عن عالم من الروحانيات اكثر تجريدًا وشـــاعريةً. فلو اخذنا على ســـبيل المثال احدى الحكم الواردة في سفر الامثال :

" حيث لا تكون بقرٌ فالمِعلفُ فارغ، وبقوة الثور غلالٌ كثيرة " (مثل 14/4)

لما وجدنا فيها ما يجذب القارئ الحديث الذي يبحث عن الحكمـــة في الديانات الشرقية القديمة مثلاً. ولكن حكمة الكتاب المقدس، النابعة من واقع الحياة، تخاطبنا نحن ابناء المشرق العربي، لِما تحتويه من صور وحقائق تخاطب خبرة الاجيـــال التي ترافقنا.

يحملنا ما نقول على طرح السؤال : اليســـت لحظات حياتنـــا كلها هي المكان الذي تسكن فيه الحكمة ؟ لقد كتب احد دارسي الكتـــاب المقدس بصـــدق ودقّة :

" إن الحكمة قبل كل شـــيء هي الحيـــاة من حيث اننا لا نفكّر فيها لأننا نعيش بِهَدْيها. الحكمة هي الامور العادية والبسيطة والشمولية، إلا أن قيمتها لا تبرز إلا عندما نفقدها بسبب الموت ".

الحكمة هي موقف أكثر منها انجازات

وتبقى الحكمة الكتابية موقفاً يتميز به الانسان اكثر منها انجازات عملية، فهي تحتوي على تصرفات معينة، وتفترض مواقفَ فيها النظرة الثاقبة إلى الأمور.

ولنأخذ على سبيل المثال مقدمة سفر الامثال التي تتحدث عن مجموعة محدودة من الامثال.

" لمعرفة الحكمـة والتأديب، للتفطّن لأقوال الفطنـة، للإستفادة من تأديب التعقّـل – البر والحق والإستقامة – " (مثل 1/2-3)

ونتابع هذه المقدمة وهي تشدد على فهم الامثال بطريقة تفاجئنا : للتفطّن للمثل والتعريض (التعريض هو التحدث في الامور بالتلميح) لكلمات الحكمـــاء وألغازهم (مثل 1/6).

نستنتج من ذلك، هي امثـــال في ســـبيل فهم المثل، مما يجعلنا نتســـاءل حول طريقة شرح المثل بالامثال.

قد نظن ان الامثال هي وصفات عملية للحياة مثل الوصفات الطبية او المعلومات التي تعطى لطبخ اشهى الاطباق. ولكن الامثـــال في الواقع هي اكثر من ذلك، انها تعلّم الانسان أن يعود دومًا الى مقاعد الدراسة لكي يجلس الى مائدة الحكماء.

وعلى العكس من ذلك، من يرفض التعلّم وقبول النصائح هو الانســـان الجاهل الغبي. فلا يقال عنه إنه لا يعلم بل هو الذي لا يريد ان يتعلّم شيئًا :

" ...لا تعتمـد على فطنتـك، لا تكن حكيمًا في عيني نفسـك... يا بنيّ لا ترذل تأديب الرب، ولا تسأم توبيخَه " (مثل 3/5-11)

فأول موقف يتخذه الانسان، الذي يسعى وراء الحكمة، هو ان يقبل الذهابَ إلى

المدرسة، ويصبح تلميذاً في مدرستها. ومن طلب ايضاً الحكمة، وجب عليه ان يتخذ، ولو بصورة رمزية، صفة الابن الذي يتعلّم ويتلقّن من والده ما اراد ان ينقل اليه من الحكمة لكي ينال السعادة :

" يا بنّي، إن قبلتَ اقوالي، وصنت عندك وصاياي، مُصغيًا بأذنك إلى الحكمة...، فإن الحكمة تدخل قلبك، ونفسك تلتذ بالعلم " (مثل 2/1-2 و10)

ولا بد لنا في هذا السياق أن نشير الى ان هذه العلاقة، ما بين الاب والابن، ليست بعلاقة يهيمن فيها الأب على ابنه، مستعلاً اياه بأساليب مختلفة. ففي مجال الحكمة تشير هذه العلاقة إلى أن إعطاء الحكمة هو من مجال الولادة لحياة جديدة.

الحكمة هي الزوجة والأخت والأم

ويصل بنا المطاف الى الحكمة في علاقتها بالمرأة من حيث هي الزوجة والأخت والأم :

" قُل للحكمة : انتِ اختي، وادعُ الفطنة ذات قرابة لكَ، لكي تحفظك من المرأة الاجنبية، من الغريبة التي تتملّق بكلامها " (مثل 7/4-5)

ولذلك في استطاعتنا ان نعتبر بعضَ النصوص، التي تتحدث عن المرأة الفاضلة، تعني أن هذه المرأة تجسّد الحكمة :

"إشرب ماءً في جُبّك، ومَعينًا مما في بئرك، فلا تفيض ينابيعك إلى الخارج، أنهار مياهٍ في الساحات، لتكن لك وحدك لا لأجانب معك، ليكن ينبوعك مُباركاً، وافرح بامرأة حداثتك ". (مثل 5/15-18)

اما الشاب المستهتر الذي يستسلم إلى أهواء امرأة، فلا بدّ له من مؤدّبٍ يعيده إلى صوابه :

" من لم يستعمل عصاه يبغض ابنه، والذي يحبه يبتكر الى تأديبه " (مثل 13/24)

" الغباوة متأصّلة في قلب الفتى، لكن عصا التأديب تُبعِدُه عنها " (مثل 22/15)

" لا تقصّرْ في تأديب الولد، إنك ان ضربته بالعصا لا يموت، تضربه بالعصا، فتنقذ نفسه من مثوى الاموات " (مثل 13/23-14)

" العصا والتوبيخ يهبان حكمة، والفتى المهمل يُخزي أمَّه " (مثل 15/29)

وقياسًا على ما سبق نستطيع القول إن الحكمة تقود الانسان الى علاقة صحيحة مع الله :

" يا بنّي، لا ترذل تأديب الرب، ولا تسأم من توبيخهِ، فإن الذي يحبه الرب يوبّخه، كأبٍ يوبّخ ابنًا يرضى عنه " (مثل 3/11-12)

ولذلك نظر مدوّن سفر تثنية الاشتراع إلى أحداث الخروج من ارض مصر، إنطلاقًا من التوجّه نفسه :

" فاعلم في قلبك انه كما يؤدّب الرجل ابنه يؤدّبك الرب إلهك، فأحفظ وصايا الرب إلهك لتسير في سبُلِه وتتقيه " (تث 8/5-6)

خاتمة

تظهر الحكمة، في الكتاب المقدس، كقوة ديناميكية تدفع نحو الأمام، فمن اعتقد أن الحكمة هي من مجال الماضي والمكان الذي فيه نستسلم إلى الراحة، فقد يكون على خطأ، لأن الحكمة الحقيقية تدعو الابن الذي تتلمذ لها إلى أن يصير ابًا، والتلميذ إلى أن يصبح معلمًا ينقل إلى الأجيال المقبلة ما تلقّاه من السلف. وفي ذلك درس تُلقيه علينا الحكمة، فهي تقول لنا إنه لا حدود للعلم، وعلينا ألا نتوقف عن البحث. ونرى ذلك واضحًا في مقدمة سفر الأمثال، حيث في جملة معترضة يوضح ذلك :

" لإعطاء السذج دهاءً والفتى علمًا وتدبّرًا، للتفطّن للمثل والتعريض (ومعناه التحدث في الأمور بالتلميح)، لكلمات الحكماء وألغازهم، يسمع الحكيم فيزداد تعليمًا، والفطين يكتسب سياسة " (مثل 1/4-6)

فالحكمة هي طريق نسير عليها بدأب، اكثر منها ملجأ نختبئ وراءه.